الفصل الرابع

الاحتلال الرومانى من بومبى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ورث الرومان «أجداد الإيطاليين» مملكة اليونان ومدنيتهم فى الغرب والشرق ونحن نكتفى من هذا البحث بما يتعلق بفلسطين ضاربين صفحًا عن أسباب سقوط اليونان وتغلب الرومان فنقول: إنه ظهر فى فلسطين قائد رومانى يدعى بومبى فاكتسحها وقضى عَلَى الحكومة اليونانية السلوقية بلا كبير عناء لأن البلاد كانت فوضى فالكلمة متفرقة والأحكام جائزة والحكام منهمكون فى ملذاتهم.

دخل بومبى دمشق فخف لاستقباله زعيما اليهود الشقيقان هركانوس وارستبولوس غصنا الأسرة المكابية الشهيرة وسعى كل منهما ليكون واليًا عَلَى فلسطين ولما أن تشاغل عنهما بومبى ولم يصغ لقولهما ظنَّ ارستبولوس أنهُ جفاه وحده وأمل أخاه فشرع يستعد لمحاربة اليونان ولكن نتيجة عمله كانت وخيمة فزحف بومبى بجيشه إلى القدس وحصرها وفتحها عنوة وولى هركانوس واليًا عليها خاضعًا للسلطة الرومانية وأمر بإلغاء المجتمع العام وقسم البلاد أقسامًا خمسة وجعل لكل منهما مجمعًا خاصًا تديره نظارة رومانية.

١٨ - هيرودس :

عاش هيرودس فى عصر عظماء الرومان كيوليوس قيصر وبومبى وانطونيوس أما أبوه انتيباس فمختلف فى أصله والارجح أنه كان أدوميًا ومن رجال هركانوس وأعوانه المقربين فدفع به جده وهمته العالية إلى أسمى الدرجات وساعده عَلَى ذلك انقسام الأسرة المكابية عَلَى نفسها ولما اختلف بومبى ويوليوس قيصر تربص حتى رأى رجحان كفة الثانى فسار بجيش إلى مصر وعضده ويقال: إنه لولا انتيباس لما فاز قيصر فى معاركه على أنهُ قتل غير مأسوف عليه. أما ابنه

هيرودس فكان رجل حرب شجاعًا مقدامًا قوى الإرادة ذكيًا حاذقًا نزوعًا إلى العُلاَ توفرت فيه شروط الإدارة وكان عسوفًا يضحى بأعظم شىء لنيل غايته وتأييد عرشه سفاكًا فتاكًا فظًا قاسيًا فقتل زوجته مريمنة لما وجد منها العطف على قومها وبنى جنسها وهو المتدله بحبها وقتل من بنيهِ ثلاثًا وأمر بقتل أطفال بيت لحم. وكان إذا أراد أمرًا فمانعهُ فيهِ أحد فتك به ولو كان من ذويهِ. ولما عين واليًا على الجليل كسب ثقة بومبى بحسن سياستهِ فامرَّوا أوغسطوس قيصر على اليهودية فقضى عَلَى سلطان المكابيين وابتدأت بهِ الدولة الهيرودسية وقد حاول أن يوفق بين اليهود والرومان ليكون بنوه خلفاءه من بعده فلما حبط مسعاه شايع الرومان وساعد عَلَى توطيد حكمهم فى فلسطين فاخضع الأمة اليهودية التى أقلقت راحة رومية بثوراتها واضطراباتها وله أعمال شاذة فى سياستهِ نأتى على بعضها.

١ – اقترن «برمينه» ابنة اسكندر بن ارستوبولس وهى بنت ابنة هركانوس من الأسرة الحسمونية الشريفة ليتصل نسبه بنسب أهل الشرف ويجرى دم الملوك فى عروق أبنائه [كما فعل السلجوقى مع الخلفاء العباسيين فى بغداد] تهوّد وبنى لهم الهيكل وراعى عواطفهم الدينية والقومية فلم يعدوه إلا أجنبيًا غريبًا ولم يتقبلوا عطفه إلا باشمئزاز وكانوا ينفرون منهُ كلما مال إليهم فتكشف لهم عن عدو فى ثياب صديق وعاملهم بعنف واضطهدهم بقوة.

٢ – كان كريمًا وهابًا يقدم الهدايا الثمينة والتحف النادرة للرومانيين وهذا ما ساعده على بلوغ أربهِ وتفوقه على مناظريهِ.

٣ - كان متجددًا لينًا شغفًا بالمدنية الرومانية والعادات اللاتينية يتكيف بحسب الظروف والأحوال بخلاف اليهود الذين كانوا ينظرون إلى المدينة اليونانية والرومانية نظرهم إلى الكفر والإلحاد ولقد ترك هيرودس آثارًا جمة فى فلسطين.

(أ) قيسارية: بنى مدينة قيسارية وسماها قيصرية نسبة إلى مولاه وهى واقعة عَلَى شاطئ البحر بين يافا وحيفا مشهورة بجودة بطيخها ولطافة هوائها.

(ب) رمم مدينة السامرة وعمرها وسماها «سبسطية» وهى كلمة يونانية تعنى أوغسطوس لقب القيصر فى تلك الأيام.

(جـ) بنى قلعة باب الخليل فى القدس ولا يزال فى أساس البناء الحالى حجارة ضخمة من ذلك الأثر الجسيم.

(د) شاد برج انطونيا «القشلة السفلى» «مدرسة روضة المعارف» وسماها باسم انطونيوس صديق كليوبتره الشهيرة.

واختط وشيد غير هذه القلاع والأبراج فى فلسطين وشرقى الأردن هياكل لأوغسطوس وحمامات ومسارح فى القدس وقيصرية وسبسطية ونقل الألعاب الرومانية الأولبية المشهورة فى البلاد فهو يشكر على هذه التحفة التى قابلها اليهود بالمقت والازدراء.

وبعد وفاة هيرودس اقتسم أولاده مملكته ولم تدم طويلاً حتى التحقت مباشرة بروما وصار يبعث لها بحكام رومانيين. وأما ابنه هيرودس أنتيباس فهو الذى بنى مدينة طبريا وسماها باسم الإمبراطور طيباريوس.

١٩ - السيد المسيح

لو أردنا أن نفصل تاريخ فلسطين لأجملنا به تاريخ العالم أجمع وأشرفنا عَلَى ماضى سالف الأمم لأنها حلقة اتصال الشرق بالغرب وبما أنا توخينا الاختصار فى هذا السفر فلا مندوحة لنا عن التوسع قليلاً فى سيرة المصلح الكبير السيد المسيح لأنُه فلسطينى ويدين بدينه ٥٦٥ مليون نفس. ولد فى أبوين فلسطينيين يوسف النجار ومريم عَلَى رأى المسيحيين واليهود، غير أن القرآن الكريم ينص «أنهُ من روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم»[1]، «ومثله عند الله كمثل آدم»، تربى ونشأ فى أرض فلسطين وشم عبير أزهارها ونسيمها وأكل من خبزها وشرب من مائها وطاف مدنها وعلم أهلها واختار تلامذتَه «حواريه» الاثنى عشر من رجالها وصلب عَلَى تل من تلالها ودفن فى ترابها [هذا رأى المسيحيين واليهود] ولكن المسلمين يعتقدون أنهُ لم يصلب، بل شُبِّهَ لهم وعرج إلى السماء حيًا.

---

(١) هذا ما ورد فى سورة النساء الآية ١٧١.

ولد المسيح فى بيت لحم فى عهد أوغسطس قيصر وفى أواخر حكم هيرودس فعاش فى الناصرة التى ينسب إليها النصارى مع مربَييْهِ يوسف ومريم الفقيرين.

كانت حياته هادئة قبل أن يبلغ الثلاثين وقد زاول حرفة النجارة عند مربيهِ يوسف فلما بلغ الرجولية شرع يبث دعوته وينشر مبادئه وتعاليمه بين قومه وأهله فى الخليل وبين بسطاء الناس فى الناصرة وحول بحيرة طبريا ونهر الأردن ثم انتقل إلى أورشليم مركز التعصب الذميم والتقليد الأعمى فجاهر بدعوتهِ وصرح بمواعظهِ- وأجلها ما جاء فى إنجيل متى إصحاح ٥ و ٦ و ٧ أى عظة الجبل فمنها:

١ – سمعتم أنهُ قيل عين بعين وسن بسن أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك عَلَى خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا.

٢ – سمعتم أنهُ قيل تحب قريبك وتبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم. لأنهُ إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون.

٣ – احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس كى ينظروكم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة. فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك.

٤ – متى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس. فإنهم يظنون أنهُ بكثرة كلامهم يستجاب لهم.

٥ – لا تدينوا لكيلا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم.

٦ - لا تكنزوا لكم كنوزًا عَلَى الأرض.

فهذه خلاصة تعاليمه الاجتماعية والدينية أما آيته الذهبية فهى: «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم لأن هذا هو الناموس والأنبياء».

فلم ترق هذه التعاليم فى عيون اليهود وألبوا عليه الرأى العام وسخروا من أقواله واتهموه بفريات ثلاث سياسية ودينية وهى:

١ – أنهُ سمى نفسه ملك اليهود.

٢ – وأنهُ قادر عَلَى نقض الهيكل وبنائه فى ثلاثة أيام.

٣ – وأنهُ سمى نفسه ابن الله.

فقرروا محاكمته لأنهُ كفر فى عرفهم. وقد خانهُ أحد تلامذته يهوذا الأسخر يوطى فسلمهُ إلى اليهود فى بستان الجثسيمانى وسيق إلى محكمة الوالى الرومانى بيلاطس البنطى الذى حكم عليهِ بالموت.

عاش المسيح عَلَى الأرض ٣٣ سنة فقيرًا لا يملك من حطام الأرض قطميرًا لأنهُ زهد فى الدنيا وما فيها. وأما المؤرخ يوسيفوس فقد قال: نشأ فى أيام بيلاطس رجل حكيم علم مريديه الحق واستمال إليهِ العدد الكبير من اليهود وغيرهم وهذا الرجل هو المسيح. ولما حكم عليه بيلاطس بالصلب بإيعاز من زعماء اليهود لم يتركه أشياعه ومريدوه وظهر لهم بعد ثلاثة أيام من موتهِ كما تنبأ عنهُ الأنبياء.

٢٠ – جلاء اليهود ثانية عن فلسطين

طمع هيرودس فى تأسيس مملكة يتوارثها نسله من بعده ولكنه اخفق فى سعيهِ كما اخفق نابليون الذى حذا حذوه بعد ثمانية عشر قرناً وقد رمى كل منهما إلى أن يكون جد أسرة مالكة شريفة. استقلت فلسطين فى أيام هيرودس استقلالاً داخليًا تحت السيادة الرومانية وقد عجز أولاده بعد وفاته عن إدارتها فألحقها الرومان بمملكتهم كما فعل الأتراك فى سورية وفلسطين فإن سياستهم الأولى لهذين القطرين كانت على نهج الإقطاع «اللامركزية» فكان أمير الولاية مطلق اليد والتصرف فى البلاد يؤدى الإتاوة والقطائع إلى الآستانة. وإن انتاب الدولة حرب يقدم لها عددًا معينًا من الجند.

ثم تبدلت الحالة وأخذت الآستانة ترسل إلى المدن الكبرى مشاهير القواد وعظماء الرجال لتجتذب الناس إليها فترغبهم فى طاعتها وتخوفهم بطشها

وتسوس البلاد بأولئك القواد حسب ما تشرع لهم من القوانين وما ألفه السكان من عرف وعادة.

وظلت الحال عَلَى هذا المنوال إلى أن ولى الملك عبد الحميد فكان يرسل الولاة والحكام من حاشيتهِ وأعوانهِ رجال «المابين». وهكذا انقلب حكم الرومان فى فلسطين من استقلال داخلى إقطاعى إلى نظام استعمارى واتخذوا قيسارية «قيصرية» مقرًا لولاتهم لقربها من ساحل البحر وللحط من شأن القدس فى عيون اليهود. ولكن الرومانيين لم يهنأوا بحكم فلسطين ولم يقووا عليها على ضيق إقليمها وضعف سكانها الذين ظلت نفوسهم جائشة متحفزة تهيم بذكرى استقلالها وتتغنى بنشيد حريتها. اعترضت هذه اللقمة الصغيرة فى حلوقهم ولم يسيغوها فأزعجت الولاة وأتعبت وأقلقت مدينة نهر التيبر أكثر من الأقاليم التى هى أرحب محلاً وأكثر نفوسًا. فلما قدم تيطس ازدردها وهضمها وقد عزا بعض المؤرخين هذا الثبات إلى اعتبارات كثيرة منها:

١ - اعتقاد اليهود أنهم شعب الله الخاص الذى اصطفاه عَلَى العالمين فهم الخيار وغيرهم خول فحرمت شريعتهم مخالطة غيرهم لأنهم أرجاس كافرون.

٢ نشر العادات واللغة والألعاب الرومانية مثل المسارح والملاهى والرقص والخمر والتماثيل مما كان يحرمها الدين اليهودى وينفر منها الأهلون فإذا ما أبصروها تنبهت فيهم العاطفة الوطنية والعصبية الدينية وهاجت روحهم القومية فيقاطعونها ويحتقرونها ولو أنهم اقبلوا عَلَى ذلك كما نحن نفعل اليوم لتلاشوا فى غيرهم من حيث لا يشعرون ولا يسعنا هنا إلا أن نعجب بأنفة اليهود وإقدامهم عَلى محاربة الرومان لما عبثوا بدينهم وذبحوا الخنازير فى هيكلهم ونشروا أعلامهم خافقة فوق رؤوسهم موشاة برسوم النسور [الصور محرمة عند اليهود].

٣ – إيمانهم بأن الله إلههم وحدهم وأنهُ قادر عَلَى إنقاذهم من حكم الأجانب وقد ابتلاهم بهذه المصائب ليعلم مقدار صبرهم ومتانة اعتقادهم. فرسخت هذه

العقيدة فى النفوس. وكان الإنسان يكلف ربهُ كل شيء فلم يلبث أن صار يركن إلى رفاقه ثم إلى الحكومات فليت شعرى متى يأتى اليوم الذى يعتمد فيهِ عَلَى نفسهِ فقط.

٤ – عسف الرومانيين اليهودُ فإنهم لم ينهجوا معهم نهج الصواب بل سخروا منهم ونبذوا شريعتهم وآدابهم، فأكبر اليهود هذا العمل وهتفوا قائلين:

متى تجمع القلب الذكى وصارمًا وأنفًا حميًا تجتنبك المظالم

٥ – خوارج اليهود الذين جنحوا للثورة فأخذوا يحرضون قومهم عَلَى ركوب هذا المركب الخشن مؤكدين لهم أن الله يساعدهم عَلَى تطهير الهيكل والبيت المقدس من نجاسة الرومان.

٦ – بطولة سكان فلسطين الذين ما غزاهم أحد وهمّ بامتلاكهم أجنبى إلا أسقط فى يده وباء بخسران كبير.

٧ – وأن كل أمة لا ترضى أن تحكمها أمة أجنبية عنها ولو طال عليها الأمد. فإذا هى حكمت تذمرت وتحفزت للانتقاض فترقب الفرص لتنتهزها وهذا ظاهر لدينا من حالة أيرلندا والعرب وبولونيا فإنهم لم ينسوا أنهم محكومين لغيرهم وعملوا عَلَى إزعاج حكامهم فظفر بعضهم بما تاق إليهِ وكذلك اليهود فإنهم لم يرضوا عن إدارة بيلاطس وأكثروا الشكايات عليه مع أنهُ تزلف إليهم يجلب مياه العروب إلى القدس وأمر بنحت أنابيب من الأحجار الضخمة ليجرى فيها الماء. وفى فناء النوتردام فى القدس نماذج منها تشهد بعظمة صانعها وقد أخفق لأنهُ عزم أن يصرف ريع أوقاف اليهود عَلَى عمارتها فمانعوه وقد انتهت ولايته بعزله. وخلفه شخص حسن السيرة فكان نصيبه أسوأ وأنكد من سلفهِ ولم يُجْدِهِ لينه نفعًا لأن داخلية البلاد كانت فى هياج مستمر فكثر قطاع الطريق وأخصبت الفتن. واستحكم الخلاف بين الحكومة والشعب وتجسم فى عهد القائد الرومانى الذى تعين سنة ٦٤ ب. م لما طمع فى أموال الهيكل وهمَّ بسلبها فقاومه اليهود بكل قوتهم ومنعوه فأمر جنوده بالبطش بهم ونهب بيوتهم فاضطرمت لظى الحرب الأخيرة التى أدت إلى خراب القدس وتمزيق الأمة اليهودية. والحقيقة أن هذه

الشرارة التى طارت من القدس ليست كافية لإذكاء الثورة فى سائر أرجاء فلسطين لو لم تكن جميع البلاد عَلَى تمام الأهبة والاستعداد للوثوب ولو لم تكن نفوسهم هائجة وأرواحهم ثائرة متوقفة عَلَى اهتزاز خفيف أو نسمة هواء تحركها فتثيرها كما أشار إلى ذلك نصر بن سيار[1]:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

اشتدت الأزمة فى أيام نيرون الطاغية الذى روى لنا التاريخ شيئًا من قساوته وشره وفساد أخلاقه فثار ثائر اليهود وطردوا الحامية الرومانية من القدس فأرسل إليهم قائده فاسباسيان بقوة عظيمة ليخمد الثورة وينتقم من مسبيبها. فنزل فى قيصرية لأنها كانت ميناء فلسطين وعاصمتها وبذل جهده نحو سنتين حتى اخضع القسم الشمالى من البلاد فاسترد طبريا وجسخلة والسامرة واريحا. وقبل أن يصل القدس فوجئ بوفاة نيرون فى رومية فارتد مسرعًا إلى إيطاليا ليتبوأ مكانه وأناب عنه ابنه تيطس المشهور فى محاربة اليهود واستئصال شأفتهم فقدم القدس بجيش يبلغ ثمانين ألف جندى كان فيه فرقة عربية «نبطية» فخيم عَلَى جبل الزيتون ومرتفع سكوبس وعَلَى تلال المسكوبية والنكفورية وحاصر المدينة التى كانت حصونها قائمة فى ثلاثة مواضع:

(١) قلعة هيرودس وبقاياها القلعة الكائنة باب الخليل.

(٢) برج انطونيا وآثاره لم تزل فى القشلة السفلى شمالى الحزم.

(٣) الهيكل «الحرم».

---

(١) هو نصر بن سيار بن رافع بن حرى بن ربيعة الكنانى، أمير من الدهاة الشجعان، كان شيخ مضر بخراسان وولى بلخ ثم ولى إمرة خراسان سنة ١٢٠ هـ بعد وفاة أسد بن عبد الله القسرى ولاه هشام بن عبد الملك، وغزا ما وراء النهر، ففتح حصونا وغنم مغانم كثيرة. وأقام بمرو وقويت الدعوة العباسية فى أيامه. فكتب إلى بنى مروان بالشام يحذرهم وينذرهم، فلم يأبهوا للخطر، فصير يدبر الأمور إلى أن أعيته الحيلة وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر من مرو (سنة ١٣٠ هـ). ورحل إلى نيسابور، فسير أبو مسلم إليه فحطبة بن شبيب، فانتقل نصر إلى قومس وكتب إلى ابن هبيرة وهو بواسط -- يستمده وكتب إلى مروان وهو بالشام، وأخذ يتنقل منتظرا النجدة إلى أن مرض فى مفازة بين الرى وهمدان ومات بساوه سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م.

قال يوسيفوس فى تاريخه: إنهُ كان فى القدس لما حاصرها تيطس ما يقارب المليون شخص. ونظن أن هذا لا يخلو من المبالغة لكن الرأى الراجح هو أن القدس ازدحمت بالمهاجرين من كل أنحاء فلسطين لاعتقادهم أن الله لا يسمح بإعطاء مدينته وهيكله وقدس أقداسه إلى غير شعبه فذكر المؤرخ الرومانى تاستس أنهُ اجتمع يومئذ فى القدس نحو ٦٠٠ ألف نفس.

لقد تحمل تيطس العذاب المر قبل فتح القدس لأن اليهود حاربوه بشجاعة فائقة واستماتوا فى حفظ بلادهم – وجدير بكل أمة تنزع إلى الاستقلال أن تدفع ثمنه مهما كلفها – ولولا ما حدث بين الأحزاب من الشقاق ما وصل تيطس إلى أمنيته.

ولكنهم انقسموا إلى ثلاث فرق:

(١) حماة الهيكل بقيادة العازار

(٢) حرس برج انطونيا وقائدهم يوحنا الجسخلى

(٣) حفظة قلعة هيرودس ورأسهم سيمون «سمعان» ولو تتبعنا ماضى اليهود وحاضرهم لوجدناه مفعمًا بالانقسامات والتحزبات السياسية والدينية التى كانت تمهد السبل لاستعبادهم والتغلب عليهم.

كل امرئ راجع يومًا لشيمته وإن تخلق أخلاقًا إلى حين

فكانوا إذا اتحدوا سادوا فتدب عقارب الحسد فى صدورهم فتطوحهم إلى هاوية الخلاف وينال منهم بسهولة ما كان صعبًا. وهكذا داهمهم جيش تيطس وهم أحزاب يتخاصمون ويتناظرون فأيقظتهم مجانيقه وآلات حصاره فحاولوا الاتفاق ولكن سبق السيف العذل فطال الحصار حتى مات الناس جوعًا وانتشر الوباء وسرى المرض من سوء الغذاء ورائحة الجيف المنتنة فرأف بهم وطلب إليهم أن يسلموا المدينة صلحًا ليعاملهم بالحسنى فأبوا وأصروا عَلَى الحرب وكانوا يبنون ليلاً ما يهدم نهارًا ولكن جهادهم لم يغنهم شيئًا وسقطت المدينة السفلى «برج انطونيا» ثم الهيكل ثم المدينة العليا «القلعة» والتى أبقاها مأوى للجنود. وأمر

بهدم برج انطونيا واحترق الهيكل من يد جندى بغير إرادة تيطس ولكنه أجهز على الأمة اليهودية وفتك بهم بلا عدل ولا رحمة.

ففر أحد الزعماء إلى قلعة «مسادا» وأسر الآخران وهما يوحنا الجسخلى وسيمون فسيقا إلى رومية ليسيرا فى موكب النصر الذى كان يحتفل فيه بعد عودة قائدهم ظافرًا منصورًا فكانت عادة الرومانيين أن يقف القائد المنتظر عند رجوعه إلى رومية فى ساحة كمبوس مرتيوس خارج المدينة ويخلعون عليه ثوبًا أرجوانيًا مزركشًا بالذهب ويتوجونهُ بنسر ذهبى ثم يحف به القواد والعسكر مُكلَّلِينَ بغصون الدفلى فيمر من أمامهم العدو المأسور ولو كان ملكًا أو عظيمًا وهنالك يبنون قوسًا لذكرى تلك الفتوحات وكل من يزور رومية يرى قوس تيطس شاهدًا عَلَى خراب القدس.

يوجد أمام فندق مرقص عمود شاخص نقش عليه كلمات لاتينية فلو تبيناها لقصت علينا حادثة القدس وخبر الفرقة العاشرة الرومانية التى تركت فى القدس للمحافظة عَلَى آثارها بعد خرابها.

٢١ – قلعة مسادا

عَلَى شاطئ البحر الميت قرب عين جدى بنى هيرودس حصنًا فوق صخرة عظيمة وحفر له الآبار وشحنهُ بالذخائر والأرزاق والعدد اللازمة ليعتصم به إذا داهمه الخطر. فلما قضى تيطس عَلَى اليهود خف أحد زعمائهم العازار بألف رجل والتجأ إلى هذا الحصن المنيع فلم تحمه البرية عَلَى اتساعها ولم تحفظه الحصون المشيدة بمناعتها فقد عقبهم جند تيطس وحصروهم وبينما هم يتوقعون التسليم رأوا ليلاً نارًا مضطرمة فى القلعة ولما تنفس الصبح صعد جند الرومان عَلَى سلالمهم فلم يسمعوا دبيبًا ولا صوتًا فحاروا فى أمرهم إلى أن ظهر لهم امرأتان قالتا لهم قد فاتكم الغنم فإن قائدنا الكبير العازار شعر بعجزه عن حماية الحصن فطلب إلى رجاله أن ينتحروا خيفة أن يأسرهم أعداؤهم فاستحسنوا نصحه وودع كل منهم زوجه وبنيه وقتلهم بنفسه ثم انتخبوا عشرة رجال من بينهم عهد إليهم

بقتل الباقين فأنجزوا عملهم واختاروا أحدهم فقتل التسعة وأحرق كل ما فى الحصن وقتل نفسه ولم يبق هنا إلا نحن وخمسة بنين. فعجب الرومان من هذه الجرأة وكان لسان حالهم يقول: إن هؤلاء الرجال العظام هم أبطال الوطنية وخليقون بالإجلال والاحترام.

سبيت الأمة اليهودية وهدمت عاصمتها وهيكلها مرتين الأولى من البابليين والثانية من الرومانيين فخمدت هممهم وخابت آمالهم بعد أن جاهدوا بأنفسهم وبذلوا أرواحهم دفاعًا عن استقلالهم.

٢٢ - هدريان

لا ريب أنه يغشى البلاد نعمى وبؤس كما يغشى الأفراد والأمم فبينما نرى القدس عاصمة تصدر منها الأوامر وتبرم فيها الأمور والأحكام إذا هى خراب يباب تنعق عَلَى أطلالها الغربان ولكن لم يكن يمضى عليها بضع سنين من الزمن حتى تراها قد استجمعت قواها واسترجعت جدتها فلو قابلنا صدماتها وما انتابها من المصائب بما أصاب غيرها من البلدان والمدن لعجبنا واستغربنا كيف أنها تجدد حياتها بعد اندثارها وغيرها يبيد ويمحق ولكن مكانتها الدينية فى نفوس مقدسيها تحملهم عَلى تعميرها وتجديد بنائها بخلاف البلدان الأخرى التى لا يشفع فيها مركز اقتصادى أو سياسى أو دينى.

إن الزمن الواقع بين عهد تيطس والفتح العمرى يقرب من ستة قرون أى ٥٦٧ سنة فهو مجلد ضخم أكثر صفحاته بيضاء لذلك أجملناها لقلة ما فيها من الأخبار الجليلة حبًا بالاختصار ومن شاء التوسع فليراجع مظانها فى بطون المطولات.

مضى عَلَى القدس ستون عامًا وهى خربة وفلسطين ساكنة مهيضة الجناح منهوكة القوى لأن الرومان تنبهوا وعرفوا أن الفتن والقلاقل فى فلسطين كانت تنبعث من القدس فحظروا عَلَى اليهود الرجوع إلى عاصمتهم إلى أن ولى الحكم الإمبراطور هدريان«أدريان»[1] فجدد عمارة القدس وسماها «إيليا كابيتولينا» فحنّ

(١) المسماة أدر يانوبل «ادرنه» على اسمه.

اليهود للرجوع إليها ودبت فيهم روح الأنفة والحمية فقام رجل اسمه باركوخب (ابن كوكب) وجاب البلدان وعرف الكهوف والجبال والبطاح والمداخل والمخارج والأماكن الوعرة الصالحة للدفاع ثم لقح الأفكار سرًا ببذور الثورة وبعث في قومه صرخة ادعى بها أنهُ هو المسيح الذى سينقذ أمتهُ من استعباد الأجانب ويخلصهم من ظلم الرومان فتبعه نفر ليس بقليل ازعج بهم حكومة رومة وأقلقها ثلاث سنوات. فاوفد إليهم هدريان قائده الجبار العاتى سفروس الذى أخضع الجزر البريطانية فسحق اليهود وقهرهم فى معركة بتير وكان ذلك آخر العهد بالحروب اليهودية.

قف هنا أيها القارئ هنيهة وتأمل فى عظمة الإمبراطورية الرومانية وضخامتها واذكر اسم القائد سفروس الذى فتك ببرابرة بريطانيا وسل نفسك أين ذهبت تلك الدولة وكيف أفل بدرها؟؟ وكيف ترقى أولئك البرابرة وورثوا تلك الإمبراطورية العظيمة فى سعة حكمها وأقطارها؟!

٢٣ قسطنطين وتنصير فلسطين

فى أوائل القرن الرابع للمسيح انشقت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين المملكة الغربية وعاصمتها رومية والشرقية وعاصمتها بيزنطية(*) وهى الحكومة التى كانت مسيطرة عَلَى فلسطين فقدمت الملكة هيلانه أم قسطنطين إلى القدس وبنت كنيسة القيامة التى يحج إليها المسيحيون وكنيسة بيت لحم «المهد» ومن ذلك العهد تنصر أهل فلسطين فاضطهدوا اليهود وأجلوهم عن البلاد.

وفى القرن الرابع والخامس ب.م أسست الصوامع والأديرة ومنها دير مارسابا المشهور الواقع فى الجنوب الشرقى من بيت لحم وكثر عدد الرهبان والنساك. ولكن مكروب الفساد وَسُوسَ الانحلال دبّ فى جسم المملكة البيزنطية فنخر عظامها وعظم الخلاف بين رجال الأكليروس: إذ ذهب بعضهم أن السيد المسيح ذو طبيعة ومشيئة واحدة. وبعضهم قال إنه ذو طبيعتين ومشيئتين إلهية وإنسانية

(*) الأستانة وتدعى أيضًا القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين أول إمبراطور تنصر وأمر بتعميم الديانة المسيحية فتبعه خلق كثير وأصبحت الديانة المسيحية دين الحكومة الرسمى

وقال الآريوسيون إن هو إلا رسول ونبى كريم فمالت الحكومة إلى القائلين بالطبيعتين واضطهدت كل من خالفهم وبينما هم يتجادلون ويختصمون هجم الفرس على سورية وفلسطين سنة ٦١٤ ب.م واغتصبوها وأغراهم يهود العراق وسورية بالانتقام من المسيحيين فهدموا كنيسة القيامة وقسمًا كبيرًا من القدس وجاهر يهود إنطاكية بالعصيان وقتلوا بطريركها وكذلك ساعدوا العرب عَلَى فتح فلسطين ودلوهم على مدخل قيسارية وهذه طبيعة كل الأمم المغلوبة على أمرها فما دخلت حكومة بلادًا كان فيها يهود إلا كانوا آلة للفاتحين سنة الله فى خلقه :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ نصيب ولاحظ تمنى زوالها

ولما بلغ هرقل ما فعل الفرس جهز جيشًا ونهض من القسطنطينية وحاربهم وانتصر منهم سنة ٦٢٨ ب.م واسترد سورية وخشبة الصليب. ولكن دولته كانت بالغة من الكبر عتيًا وظهر عليها الضعف والفتور فعجزت عن دفع فيضان الحكومة العربية الفتية وتقلصت إلى داخل حدودها.

٢٤ - آثار اليونان والرومان فى فلسطين

شهد التاريخ عَلَى فلسطين أنها بلاد احتلال واستعمار فإن لم يكن يهوديًا كان أشوريًا أو بابليًا أو فارسيًا أو مصريًا أو رومانيًا أو يونانيًا أو تركيًا أو إنكليزيًا ولا نعلم كيف يكون المصير.

فلسطين بلاد آسيوية اغتصبها الغرب من الشرق أزمانًا وتناوبتها دُوَله فابتدأ هذا المد بالموجة الفلسطينية وتبعها طوفان اليونان ثم فيضان الرومان وسيل الصليبيين المتدفق وختم بالاحتلال الإنكليزى والوطن القومى اليهودى.

ولكن الشرق لم يقف أمامه صاغرًا بل كان يثأر منه الكيل كيلين وغزا أوروبا واحتلها قرونًا متعددة وحكم فى أهلها فنشط الفنيقيون إلى استعمار بلاد اليونان والكلتين وجزر البحر الأبيض وبريتانيا(*) ثم غزا الفرس دولة اليونان واستولوا

(*) لفظة سامية مركبة من كلمتين بريتا «بلاد» آنيا «إناء التنك» أى «بلاد التنك» أطلق الفنيقيون هذا الاسم على بلاد الإنكليز لكثرة معدن التنك فيها فعلق بهم إلى يومنا هذا.

عَلَى بلادهم ثم فتح العرب أسبانيا وجنوب فرنسا وجزر البحر المتوسط وانحدر التتر «المغول» من شمال غربى البحر الأسود وألفوا هناك حكومات وإمارات وأردف كل هذا بفتوح الأتراك العثمانيين واكتساحهم شرق أوروبا حتى فينا فلو قابلنا المد والجزر فى كلتا القارتين لتساويا.

ليست المدة التى بين فتح الإسكندر والفتح الإسلامى قصيرة بل تبلغ ٩٧٠ سنة أى من ٣٣٣ ق.م – ٦٣٧ ب.م وهى كافية لاندغام سكان آسيا بأهالى أوروبا لأنهم الحاكمون ولكن مضى هذا الزمن الطويل ولم يعلق بنا وببلادنا إلا النزر اليسير نفرد له فصلاً خاصًا من هذا الموجز:

١ - اللغة اليونانية:

إن كل قائد فاتح يحمل لغته معه حيث سار فتنازع لغة البلاد وتصارعها فيفوز الأنسب ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق محمومًا ففتحوا مدنه وأقاليمه ونشروا لغتهم الجميلة فانتبذها الأهالى وانحصرت بين الطبقة المتهذبة وفى مجالس الخاصة وأندية الأدباء فقط كما هى اللغة الإنكليزية والفرنسية الآن وعجزت عن مزاحمة لغة أهل البلاد الوطنية وهى اللغة الآرامية ولكنها تغلبت عَلَى اللغتين اللاتينية والعبرية الدخيلتين فقد مضى قرن وثلث على حكم الرومان البلادَ واللغة اليونانية ذات السيادة فدُّون المسيحيون أناجيلهم بها وتفننوا فى رسائلهم بآدابها وأهملوا اللغة العبرانية ولغة الحكومة اللاتينية.

٢ – المدن:

شاد اليونان فى الشرق الأدنى مدنًا كبيرة وعظيمة منها الإسكندرية وإسكندرونة وإنطاكية وجرش وعمان أما المدن الرومانية فهى بعلبك ومن زارها يحنى رأسه إعجابًا من تلك المدينة الفائقة والبناء الضخم وقيسارية وسبسطية وطبرية ويروى أن الإسكندر أسس نحو ٦٠ مدينة فى الشرق جعلها مراكز لبث الدعوة اليونانية ونشر المدنية الغربية واسكن بها دعاة اليونان الذى كانوا يبشرون بالروح اليونانية «التفرنج».

٣ - الروح اليونانية "Hellenism" :

ربما كان خير تفسير لكلمة هيلنزم «التفرنج» أى نقل عادات الأفرنج وألعابهم وأخلاقهم ولذلك سعى اليونان جهدهم لجعل البلاد يونانية فبشروا بديانتهم وشوقوا الناس إلى اقتباس عاداتهم وآدابهم فبنوا المسارح وملاهى التمثيل فى مدنهم ونحتوا تماثيل لمشاهيرهم وآلهتهم فعبدت الأصنام وآثارها باقية فى بعلبك فإن صح لنا أن نشابه بين الماضى والحاضر نقول: إن كرة القدم والملابس المقصرة والرقص والسينما وغير ذلك يشبه ذات الروح التى توخاها اليونان فى عصرهم.

كانت مدينة الإسكندرية وإنطاكية عش الدعوة اليونانية ومنهما تشع روحهم وتتوزع عَلَى سائر أقطار الشرق. فقد نبغ فى سورية من الفلاسفة والأدباء نفر غير قليل وزهت المدنية اليونانية ونضجت المعارف وأزهرت العلوم فى عاصمة البطالسة وكثرت المكاتب والآلات الفلكية لرصد الكواكب وأدوات الهندسة وآلاتها فاليونان أساتذة العالم وأدلاء الشرق ومرشدوه ولقد كان لهم عشر مدن فى فلسطين تدرس فيها تعاليمهم وتعرض فيها مدنيتهم فتلاشت من رفض اليهود وكرههم لها.

وإن من تنقل فى أطراف فلسطين وتأمل قليلاً يرى آثار القناطر والطرق والهياكل التى تركها لنا الرومان كما سنفصله فى هذا التاريخ عن مدن فلسطين.

❁❁❁